

انهيار المنظومة الجمالية يعكس تراجع الذوق العام في المجتمع العراقي

التماثيل المشوهة جزء من أزمة اجتماعية شاملة تعكس ضعف الدولة



مهد الحضارة المدمر



وجه العراق الجديد

ونصب النصور عام 1969 بالإضافة إلى نصب "شهریار وشهرزاد" وتمثال معروف الرصافي وعبدالمحسن الكاظمي وكهرمانة والفراس العربي والواسطي والمتنبي ونصب الشهيد وتمثال العدالة في شارع حيفا والقائمة تطول.



عالية طالب
التماثيل المشوهة
شاهدة على تدهور
الذائقة الفنية

تدهور وضع الفنانين أكثر بعد الإطاحة بنظام صدام حسين. فر العديد من مثقفي بغداد من العنف واسع النطاق.

انقلبت الحياة فجة بعد الغزو الأميركي ومعها تغيرت الكثير من السياقات والملامح، ومنها بشكل عام ما يتعلق بالفن والثقافي والذوقي وبشكل خاص ما يتعلق بجمالية المكان والأعمال الفنية التي تنفذ فيه.

وفي أبريل 2003، نهب متحف بغداد الأثري ومتحف الفنون الحديثة (المعروف سابقاً باسم مركز صدام للفنون) والمكتبة الوطنية العراقية. صدمت صور المتاحف المنهوبة الشعب العراقي والعالم. أدان المجتمع الدولي تدمير التراث الأثري الثقافي العراقي. وأعيد افتتاح المتحف الأثري في عام 2015.

أنتج الفنانون المعاصرون المقيمون في العراق أو في الخارج بعض الأعمال المسروقة. وفي سياق الحزن العالمي على التراث الثقافي المشترك المفقود، طوّر الفنانون والمتحمسون للفن مبادرات ليس فقط لاستعادة الأعمال الفنية المفقودة، ولكن أيضاً للنضال من أجل الاعتراف بها كجزء من الأصول التراثية.

في التبشير بكسر حالة الجمود بين قوى المجتمع وتطورها حضارياً. ويقول مراقبون إن "دولة لا تؤمن بالإنسان وتدفع به إلى الانهيار والسقوط، كيف يمكن أن نطالبها بالاهتمام بجوانب تعدد من علامات الرقي والذوق والإشارات الجمالية؟". ورغم ذلك، يعمل فنانون في الداخل والخارج لإعادة الحياة لفن النحت. وتقول الفنانة العراقية زينب الركابي "في بلد مثل العراق مليء بالأحداث، من الطبيعي أن يكون للفنان دوره الكبير في حياة مجتمعه من خلال أعماله".

وأعاد فريق من النحاتين الشباب يضم محمد نزار وعمر الخفاف ونزار عبد اللطيف وخالد العبادي وعمر ابراهيم، إحياء التماثيل التي دمرتها أيدي التطرف في الموصل سعياً منهم إلى مساعدة سكان المدينة على نفض ذكريات الظلم والقهر الوحشي والعقوبات الفظيعة التي كانت الساحات العامة مسرحاً لكثير منها، وعانت في مدينتهم خراباً.

وتقول الأديبة العراقية عالية طالب إن "التماثيل المشوهة وجدت طرقاً للزحف إلى العاصمة ومؤسساتها الأدبية والثقافية لتكون شاهداً على تذني الذائقة الفنية النحتية رغم أن حضارة العراق تشير إلى ظهور النحت في الألف الخامس قبل الميلاد، ولنا في منحوتات اثار بابل وسومر، ما يؤكد أهمية النحات العراقي في كل الحقب الزمنية".

وبالرغم من نشاط جمعية التشكيليين العراقيين بإقامة معرضها السنوي الذي يضم أعمالاً مميزة، إلا أن الواقع التطبيقي يقول إن ما يراه العراقيون في المعارض الخاصة لا يجدونه في الأماكن العامة وبيوت النصب النحتية المنفذة في عقود

كان الفن العراقي نابضاً بالحياة في القرن العشرين، على الرغم من أن عقوداً من الحرب والعقوبات الاقتصادية في عهد الرئيس الراحل صدام حسين تسببت في هجرة العديد من الفنانين، كما أدت اليد الحازمة للدكتاتورية إلى خلق الفن.

ورغم ذلك ظهرت أعمال نحت مميزة لتزين ساحات بغداد ومنها ما ترسخ في الذاكرة وخاصة نصب الجندي المجهول الذي تم تنفيذه من قبل ثلاثة مهندسين (عبدالله إحسان كامل ورفعت الجادرجي وإحسان شيرزاد) في ستينيات القرن الماضي ثم توالى الأعمال المبدعة لينتصب عام 1961 نصب الحرية للفنان الراحل جواد سليم وتمثال الأمل للفنان الراحل خالد الرحال. ويرز بعدها نصب ثورة 14 يوليو عام 1963 للفنان ميران السعدي

مهاجمة الآثار والتماثيل والرموز في الساحات العامة على الجانب الأمني فحسب، بل هي انعكاس لثقافة اجتماعية نشأت في أوقات الحروب والأزمات والفساد السياسي والاقتصادي - مما يؤدي إلى تمرد اجتماعي ضد أي شيء يتعلق بالفن والتراث والقيم". وينص قانون الآثار والتراث عدد 55 لسنة 2008 على الحفاظ على الرموز التراثية والفنية التي يعتز بها الناس، وتشمل العقوبات المنجزة عن مخالفة هذا القانون السجن لمدة تصل إلى 10 سنوات بالإضافة إلى غرامة بقيمة الضرر. ويبقى القانون، بناء على التجارب السابقة، جبراً على ورق.

عجز مجتمعي

العراق تقليد طويل وفخور في الفنون. تظهر بقايا بلاد ما بين النهرين القديمة أن النحت ازدهر هنا لآلاف السنين، وفي العصر الإسلامي، كانت مدن العراق مراكز مشهورة عالمياً للشعر والفلسفة.

ولا تعدو أزمة التماثيل المائلة الآن إلا أن تكون جزءاً من الأزمة الاجتماعية الشاملة. وتعتبر هذه الأزمة عن عجز المجتمع العراقي عن تطوير قواه البنوية لتدهور علاقته الاجتماعية التطبيقية والمذهبية، وعلاقته الاقتصادية، بفعل إهمال الحكومات المتعاقبة لأغلب

مؤسساته الإنتاجية والعلمية والثقافية مما ولد حالة أثرت بجعلها على البنى الاجتماعية المتوسطة والأدنى، مما حدا بأفراد هذه المستويات للتطلع بأمل كبير إلى الثقافة وإلى المثقفين حتى يمارسوا دورهم الطبيعي

الآن، في بلد لا تصل الكهرباء إلى العاصمة إلا بضع ساعات فقط في اليوم، فإن تمويل الفن ليس أولوية. ويرى الفنان ليث فتاح الترك شقيق الفنان الراحل إسماعيل فتاح الترك أن "غياب المحترفات والمشاغل في العاصمة وباقى المدن أدى إلى تراجع فن النحت وغياب ملامح مدرسته التي أرسى قواعدها الحقيقية الراحل جواد سليم". وتابع الترك إن "فراغ المشاغل الفنية والمحترفات أسفر عن انقطاع الفنانين عن أجواء الإبداع والعمل الفني لمواصلة الإنتاج المميز".

ويستذكر الفنان والشاعر عمار بن حاتم بغداد عندما كان يخلق فوقها قائلاً "كنت تشعر أنك تحلق فوق متحف كبير لوجود كم هائل من النصب والتماثيل الكبيرة التي تؤرخ لمراحل مهمة من تاريخ العراق الحديث، وهذه النصب هي نتاج فكري وفني وثقافي عظيم لمجموعة فنانين عظام كان يشار عالمياً، وكانت أعمالهم الشامخة في بغداد أشبه ما تكون علامة فارقة".

تغير الأمر بعد أن بدأت إفرارات الغزو الأميركي من تخلف وجهه وتسد الجبهة من الناس ووصول التيارات الدينية المتشددة إلى سدة الحكم تظهر إلى السطح.

وغالبا ما تقع الأعمال الفنية فريسة للانتقام السياسي. بمجرد أن تبدأ حقبة سياسية جديدة، يقع إزالة أو تدمير رموز الحقبة السابقة. وبدأت حملة إزالة التماثيل والنصب التي هي جزء من تاريخ العراق الذي لا يمكن استنصاله واقتطاعه بسهولة، إذ أنه من المفروض الحفاظ على بعضها وعدم إزالتها من الساحات المهمة وسط بغداد والمدن الأخرى، فهناك شواهد ونتائج فنية عظيمة تؤرخ لمراحل مهمة من تاريخ العراق. ولم يتوقف هذا الحدق التاريخي على الحجر والبرونز والصوان العراقي المزوج عرقاً، عند سنة بعينها بل كان يرى في كل تاريخ العراق هدفاً لتدميره. أما التماثيل التي لم تصلها يد الهدم والصهر والحقد فقد أمست، مكبات للفضايات.

ويقول الناشط غيث التميمي إن "التيارات الأصولية، تستهدف المعالم الأثرية والحضارية وكأنها تريد إفراغ هذه البلدان والمجتمعات من عمقها التاريخي والحضاري، لكي تجعلنا أمة بلا ذاكرة". ويؤكد المتحدث باسم وزارة الداخلية، أن "ظاهرة

لم يشهد فن النحت في العراق منذ انطلاق مدرسته الأولى عام 1956 على يد مجموعة في مقدمتها جواد سليم وخالد الرحال وخليل الورد فترة سبات كئيب التي يمر بها حالياً. ولم يشهد العراق منذ بداية القرن العشرين مثيلاً لما يشهده حالياً من تدهور شؤه كل ما كان يعزه في تاريخه الحديث والمعاصر من قيم مادية وروحية، وهو تدهور لا يمكن عزله عن التدهور الشامل الذي أصاب المجتمع.

لندن - يجمع العراق بين ثنائيتين متناقضتين تشكلان خصوصيته المتفردة، ففي الوقت الذي يتم تصويره على أنه مهد الحضارة، هو أيضاً بلد يتسم بالدمار الهائل والنهب المتكرر لمؤسساته الثقافية. وضمن هذا الإطار شديد الاستقطاب، تركت أجيال من العراقيين وطنهم على مدى عقود وكان من بينهم فنانون ومتقنون هاجروا من العراق ويواجهون استحالة العودة أو حتى صعوبة التواصل مع أقاربهم داخل البلاد في سياق الانقسامات العميقة. ورغم ذلك يحاول الفنانون العراقيون في المنفى التفاعل من الخارج وإعادة أجواء المدينة المفقودة من خلال إبداعاتهم.

«سعلوة» و«صكر أفليح»

انتشرت خلال السنوات القليلة الماضية نصب لمنحوتات مشوهة وغير فنية، ولا تحمل من الجانب الفني غير الإساءة إلى الفن العراقي. هكذا عذرها المختصون، ونظروا إليها كنصب بدينية لا تحمل مقومات الفن.

وأطلقت تسميات شعبية فكاهية مختلفة على النصب التي أثارت سخرية الناس؛ ففي الناصرية سُمي تمثال المرأة السومرية "السعلوة" بسبب منظرها البتسج، في إشارة إلى أسطورة "السعلوة"، وهي حكاية من الموروث الشعبي، في حين أطلقوا على تمثال صقر كربلاء "صكر أفليح"، وهي حكاية ترمز لفشل شخص يدعى فلاح كان لديه صقر يصيد الأفاعي ويرميها عليه، وفي البصرة أطلق المواطنون على نصب فني يحمل دلالة عن النفط تمثال "البانجانة" بسبب شكله الذي يشبه البانجانة.



تسميات شعبية فكاهية أطلقت على النصب التي أثارت سخرية الناس؛ إذ سمي تمثال صقر كربلاء «صكر أفليح» وهي حكاية عراقية تراثية ترمز للفشل



وفتحت تلك الأعمال الباب أمام تساؤلات كبرى عن مستقبل النحت العراقي، لاسيما بعد ظهورها في ساحات عامة في عدة محافظات العراق، مما يثير المخاوف أكثر بشأن اتساع التشوه البصري وانحسار الأعمال الفنية التي تحمل بصمة جمالية واضحة.

تدمير ممنهج

يشتكى مواطنون عراقيون وفنانون تشكيليون من كثرة التجاوزات المستمرة والإهمال المتعمد من قبل الحكومة العراقية للنصب والتماثيل التذكارية في العراق التي تدل على ثقافته وعراقته تاريخه.